(خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في القرآن)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

هذا العنوان يقصد به خروج الكلام عن السمت المعتاد المطروق عادة في مجاري الكلام وأساليب الخطاب ؛مراعاة لمقتضى الحال.

وهذا الخروج إنما هو لإبراز المعنى الذي أراده المتكلم من خطابه؛ فعندما يخرج الكلام عن رتابته المعهودة فسيقف القارئ والسامع مع هذا التغيير وقفة تأمل وتدبر.

ولاشك أن هذا الانتقال في الأسلوب من لفظ إلى آخر يرمي لمعنى مراد لا يمكن أن يتم دون ذكر هذا اللفظ الوارد على النسق غير المعتاد ؛فالألفاظ تابعة للمعاني خادمة لها.

وعليه فلا يُعد هذا الخروج مخالفًا للأصل الذي عادة يكون عليه- من حيث الظاهر - ترتيب الكلام وتقابل الألفاظ ،والجمل ذات السياق الواحد ؛ فالمتكلم قد يعدل في خطابه عن جادة الظاهر إلى أسلوب آخر يكشف فيه المعنى الذي يريده ويكون تفسير كلامه مبنيًا على هذا العدول مطابقًا للمراد.

ولا يعني ذلك –أيضًا- أن الأخذ بهذه المخالفة يترتب عليه :اطراح العناية بمقتضى الظاهر بل إن المعنى ابتداءً يُتوصل إليه عن طريق الظاهر. ولكن المراد: أن تمام المعنى الذي أراده المتكلم لا يتم إلا إذا اعتمدنا مراعاة مقتضى الحال الذي نشأ عن مخالفة مقتضى الظاهر.

وبهذا يظهر جمال المعنى ،وتتجلى قوة الحجة ، وتبرز متانة الوصف.

وقد عني علماء التفسير بإبراز هذا الجانب وتوظيفه في تفسير كلام الله تعالى . كما هو ظاهر عند الزمخشري في الكشاف وابي السعود في إرشاد العقل السليم و الألوسي في روح المعاني وابن عاشور في التحرير والتنوير وغيرهم.

وهذا المصطلح – أعني :مخالفة مقتضى الظاهر- يطوي تحته أنواعًا من الأساليب يجمعها كلها :أنها جاءت على خلاف ما ا عتاده السامع والقارئ؛ بحيث تُحدث لديه عنصر المفاجأة المؤدي للتأمل والتدبر ؛فيقف مبهورًا من هذا الإتقان البديع في اختيار الألفاظ وانتقاء التراكيب واصطفاء الأساليب.

فمن هذه الأساليب على سبيل المثال لا الحصر:

الالتفات – الأسلوب الحكيم – العدول في الصيغ - الإظهار مقام الإضمار – وضع الخبر موضع الإنشاء والعكس – الانتقال من الماضي إلى المضارع والعكس.

أولا / (الالتفات).

وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر كأن ينتقل من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب أو من التكلم إلى الغيبة أو من الغيبة إلى التكلم أو من التكلم إلى الخطاب.

١) – (الالتفات من الخطاب إلى الغيبة).

مثال ذلك : قوله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما).فهنا جاءت جملة (واستغفر لهم الرسول) والمتبادر أن يقول :(واستغفرت لهم) ولكن جاء الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لغرض إظهار منزلة النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه رسولا وأن هذه المنزلة الرسالية المنيفة وهذا الاستغفار والدعاء منه في حياته: أحرى بالقبول، وأكثر ترغيبا في التوبة والإنابة.

٢ – (الالتفات من الغيبة إلى الخطاب).

مثال ذلك: قوله تعالى (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم).

جاء صدر الآية الكريمة بأسلوب الغيبة (من المشركين) وكان مقتضى الظاهر أ ن يقول (فإن يتوبوا فهو خير لهم) ولكن انتقل الكلام إلى أسلوب الخطاب لغرض : التهديد والتخويف.

٣ – (الالتفات من التكلم إلى الغيبة).

مثال ذلك : قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر) كان مقتضى الظاهر أن يقول: (فصل لنا) ولكن انتقل إلى الغيبة بذكر الاسم الظاهر (لربك) والغرض من ذلك : تربية المهابة والإجلال،والتذكير بنعمة ربوبية الله تعالى على عباده.

٤ –(الالتفات من الغيبة إلى التكلم).

مثال ذلك : قوله تعالى (فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا ذلك تقدير العزيز العليم) . كان مقتضى الظاهر أن يأتي (وزين السماء) مقابلة لفعل (وأوحى) ولكن انتقل الكلام من الغيبة إلى التكلم .

والغرض من ذلك :لفت الانتباه إلى ما هو محسوس مشاهد ؛ تذكيرا بالنعمة.

وهذا الغرض له نظائر في كتاب الله من ذلك:

قوله تعالى (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها) فهنا جاء(فسقناه-فأحيينا) مع قوله (أرسل).

وكذلك قوله تعالى:(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرا ت...) جاء الفعل(فأخرجنا) مع قوله(أنزل).

ومن ذلك –أيضاً- قوله تعالى:(وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء...).

وكذلك قوله تعالى:(وهو الذي أرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً) فجاء الفعل(وأنزلنا)مع قوله(أرسل).

٥ – (الالتفات من التكلم إلى الخطاب).

مثال ذلك :قوله تعالى(وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون).

مقتضى الظاهر أن تأتي الآية (وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه أرجع) أو(ومالي لا أعبد الذي فطركم وإليه ترجعون).

ولكن جاء تركيب الآية على هذا النسق لغرض التعريض بهم وأنهم هم المقصودون بالخطاب وقد أسند الخبر لنفسه (فطرني) تلطفاً في خطابهم فجاء في قالب المنا صحة فبدأ بنفسه معترفا بإيجاد الخالق – سبحانه - له من العدم فلا أعبد إلا هو و أنتم كذلك يجب عليكم صرف العبا ده له وحده دون سواه فمرجعكم ومآلكم إليه سبحانه.

ثانياً / (الأسلوب الحكيم) يعرف هذا الأسلوب عند البلاغيين بأنه: تلقي المخاطَب بغير ما يترقب بحمل كلامه على غير مراده ،أو تلقي السائل بغير ما يتطلب الإجابة عنه ؛تنبيهًا له لما هو أولى بالسؤال عنه.

وعلى هذا فهو ضربان: ١- تلقي المخاطَب ٢ – تلقي السائل.

فالضرب الأول هو: أن يتلقى المخاطَب رداً - بعد أن يسلم المتكلم للمخاطَب تسليما جزئيا على دعواه– على خلاف ما كان يتوقعه.

مثاله: قوله تعالى(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون).

في صدر هذه الآية الكريمة (ليخرجن الأعز منها الأذل): زعم المنافقون بأنهم الأعز وأن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة هم الأذل وجاء الرد على هذا الزعم بتسليم جزئي وهو أن الأعز سيُخرج الأذل ، ولكن ليس الأعز والأذل الذي يقصده المنافقون وإنما الأعز من هو أحق بذلك فقال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون).

ومثال الضرب الثاني – وهو تلقي السائل – قوله تعالى :(يسألونك عن الأهله قل هي مواقيت للناس والحج) فالسؤال في هذه الآية إنما هو عن تغير أحوال القمر يبدأ هلالاً ثم يكبر ويكتمل

ثم يعود إلى النقص، ولكن الجواب لم يكن مطابقًا للسؤال ،وإنما عُدل به إلى ما هو أهم وهو ذكر فائد ة هذه الأهلة.

ثالثاً / (العدول في الصيغ) :

١) – (العدول من صيغة فعلية إلى صيغة إسمية).

قال تعالى: (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) في هذه الآية الكريمة صيغة فعلية (أدعوتموهم) وكان مقتضى الظاهر أن تقابلها أيضاً صيغة فعلية مثل (أم صمتُّم) ولكن عُدل عنها إلى صيغة إسمية(صامتون).

والغرض من ذلك: إثبات الديمومة التي تفيد ها الجملة الإسمية دون الفعلية التي تفيد التجدد والحدوث فيكون المعنى: سواء عليكم أدعوتموهم دعوات متجددة أو لازمتم الصمت فالصمت لا تجدد فيه.

٢) - (العدول من صيغة المصدر إلى اسم المرة).

قال تعالى: (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين – قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين)جاء المصدر(ضلال)في قول الملأ.

وكان مقتضى الظاهر أن يكون جواب نوح عليه السلام بالمصدر أيضا(ليس بي ضلال) ولكن عُدل عن هذه الصيغة إلى اسم المرة (ضلالة).

والغرض من ذلك: نفي الضلال من أصله وأنه لم يتلبس بأي جزء منه ولو كان يسيراً ولذلك عداه بحرف الباء ولم يقل: ليس فيّ ضلالة.

٣) - (العدول من اسم الفاعل إلى المصدر).

قال تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً .....) .

جاءت كلمة (فسادا)منصوبة على المصدرية ،ومقتضى الظاهر أن تأتي بصيغة الحال (مفسدين) ولكن عُدل عن ذلك إلى المصدر.

والغرض من ذلك: إفادة أن سعيهم في الأرض إنما هو للفساد لا لغيره فهذا غاية قصدهم ومنتهى أمانيهم ،ولا شك أن الإتيان بالمصدر أبلغ من الإتيان بالحال ؛إذ الحال ليست دائمة وإنما هي متغيرة.

٤) - (العدول من الفعل الماضي إلى الفعل المضارع).

قال تعالى: (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون).

جاء الفعل (كذبوا) بصيغة الماضي، وكان مقتضى الظاهر أن يُعطف عليه فعل ماض ولكن عُدل إلى الفعل المضارع(يقتلون).

والغرض من ذلك :استحضار صورة المشهد ، وبيان شناعة وبشاعة هذا الفعل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٥) - (العدول من صيغة المضارع إلى الماضي).

قال تعالى: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وأمر الله تعالى لم يأت بعدُ بدليل قوله (فلا تستعجلوه). وكان مقتضى الظاهر أ ن يقال : سيأتي أمر الله فلا تستعجلوه.

والغرض من ذلك: بيان تحقق وقوع هذا الأمر، وأنه آت لا محالة، وبلغ من صدق مجيئه أن أُخبر عنه بصيغة الماضي التي تفيد وقوع الشيء وانتهائه.

رابعاً / (المخالفة بين الخبر والإنشاء).

والمقصود بالإنشاء هنا: الإنشاء الطلبي كالتمني والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء.

قال تعالى:(وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون – وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين – أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون).

جاء القسم الأول من الآية بصيغة الخبر وكان مقتضى الظاهر أن يكون الجواب كذلك بصيغة الخبر مثل (في قلوبهم مرض أو ريب أو خوف).

ولكن عُدل إلى الجواب بصيغة الإنشاء (أفي قلوبهم مرض ....).

والغرض من ذلك:
تأكيد المعنى ، وبيان بشاعة صنيع المنافقين بتبعيتهم لأهوائهم عند تحكيم أمر الله تعالى؛ فيأخذون ما لهم، ولا يؤدون ما عليهم .

خامسا / (إقامة المُظهر مقام المضمر) .

الأصل في الكلام: أن يذكر لفظ مظهر ثم بعد ذلك يُعطف عليه لفظ اقترن به ضمير يعود على ذلك المظهر مثل : لقيت زيداً وكلمته. وهذا فيه إيجاز ويغني عن إعادة المظهر مرة أخرى بقولك : لقيت زيداً وكلمت زيداً؛ فهذا حشو معيب في اللغة.

لكن قد يأتي في الكلام البليغ إعادة المظهر مرة أخرى مقام المضمر؛ لغرض بلاغي يريده المتكلم ويفهمه المتلقي.

وهذا الغرض يتنوع حسب السياق الذي تضمنه مثل: تجلية المعنى ،و تهويل الأمر وتبشيعه

والإهانة والتحقير، و بيان علة الحكم إلى غير ذلك.

ومن أمثلة ذلك:

١ / قوله تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم ....).

جاء سياق الآيات التي قبلها في الحديث عن الناس(وإذا مس الناس ضر..)(وإذا أذقنا الناس رحمة..).

فكان مقتضى الظاهر أن يقال:(بما كسبت أيديهم) ولكن عُدل إلى الاسم الظاهر لغرض زيادة إيضاح المقصود وتقرير الحكم ولطول الفصل.

٢ / قال تعالى : (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون).

تكرر ذكر الشيطان في هذه الآية ثلاث مرات، وكان مقتضى الظاهر أن يقال (أولئك حزبه ألا إن حزبه هم الخاسرون) ولكن عُدل إلى الظاهر؛ لغرض التحقير والإهانة والتنفير.

ويقابل ذلك أن يأتي لغرض التعظيم كما في قوله تعالى: (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)وقوله:(واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم).

٣ / قال تعالى : (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون). أُعيد ذكر (الذين ظلموا) مظهراً وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (فأنزلنا عليهم) ولكن عُدل إلى الظاهر لغرض التنبيه على علة الحكم وأن سبب هذا الرجز والعذاب هو ظلمهم وبغيهم الذي أنتج فسقهم.

كتبه:عبدالله بن محمد المعيتق

كلية التربية جامعة المجمعة

هذا الكتاب منشور في